

رحلة إمبراطور ألمانيا وليم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة

عبد الرؤوف سنو
الجامعة اللبنانية

شهد الشرق الأدنى قبل مئة عام (1898) حدثاً فريداً في العلاقات ما بين الدولة العثمانية وألمانيا، وهو قيام الإمبراطور وليم الثاني بزيارته الثانية إلى الدولة العثمانية⁽¹⁾، والتي طاولت هذه المرة بلاد الشام. ولا تكمن أهمية هذا الحدث في ما أعلن بأنه رحلة حجٍّ للعاهل الألماني إلى الأراضي المقدسة وتدشين مؤسسات ألمانية فحسب، بلّ لأنه كان تعبيراً عن سياسة ألمانيا الجديدة في جعل الشرق منطقة نفوذ لها وصراع مع الدول الأوروبية الرئيسية – هذا الصراع الذي كان إنعكاساً لإستراتيجيتها في أن تكون لها كلمة مسموعة في السياسة العالمية و"مكاناً تحت الشمس"⁽²⁾.

وعشية، رحلة الإمبراطور وليم الثاني إلى الشرق، كانت ألمانيا قد حققت قفزات كبيرة في علاقاتها التجارية والاقتصادية والثقافية مع الدولة العثمانية وحصل رأسمالها على إستثمارات واسعة، إضافة إلى تدريبها الجيش العثماني وتسلّحه⁽³⁾. وانعكس تغلغلها هذا من جهة، وعدم اعتمادها سياسة استعمارية مباشرة تجاه ممتلكات السلطان العثماني من جهة أخرى، تصاعداً في نفوذها السياسي في الأستانة، بحيث فاق مثيله الأوروبي.

حتى قبل أن يبدأ وليم الثاني رحلته الثانية إلى الشرق (16 تشرين الأول- 12 تشرين الثاني 1898)، والتي زار خلالها العاصمة العثمانية ومدن بلاد الشام الرئيسية، كانت الرحلة مدار حديث الصحافة الدولية. وقد أولت الصحافة العربية بدورها الزيارة إهتماماً ملحوظاً، نظراً إلى مكانة ألمانيا ومصالحها في السلطنة، ولأنها جاءت في أعقاب الصمت الألماني عن المذابح الأرمنية (1895)، وانتصار الجيش العثماني على نظيره اليوناني (1897) بفضل السلاح الألماني⁽⁴⁾.

سوف تركز دراستي على ما جاء في الصحف العربية حول الرحلة، من دون تقصي مدى صحة أخبارها، لأنّ ذلك يخرج عن إطار البحث ويحتاج إلى دراسة منفردة. وقد حرصت على متابعة رحلة العاهل الألماني في الصحافتين المصرية والسورية، لأنهما كانتا أكثر وسائل الإعلام تقدماً في المنطقة العربية. وقد تناولت هذه الصحافة بشكل عامّ الاستعدادات والتحضيرات الرسمية والشعبية للزيارة، وتحركات الإمبراطور في الأستانة ومدن بلاد الشام. وما يميز الصحافة المصرية (المقطم والأهرام أساساً) عن مثيلاتها السورية، أنها تعاطت مع الرحلة بمنظار نقديّ لأهداف ألمانيا السياسية والاستعمارية في المنطقة، هذا إضافة إلى توجيهها النقد للإدارة العثمانية وللسلطان

العثمانيّ نفسه حول الإنفاق الهائل والإسراف الفاحش على الرحلة⁽⁵⁾. وفي المقابل، اتخذت صحيفة "المؤيد" المصريّة موقفاً داعماً للزيارة⁽⁶⁾. أمّا الصحافة السوريّة، فعكست في أخبارها وتعليقاتها الموقف الرسميّ العثمانيّ⁽⁷⁾.

1. أهداف الرحلة، حجٌّ وصدّاقة أم غايات استعماريّة؟

امتدحت معظم الصحف العربيّة رحلة إمبراطور ألمانيا إلى الشرق ودعت إلى إستقباله بحرارة، معتبرة زيارته تجسيداً للصدّاقة التي تجمع ما بين الأمتين الألمانيّة والعثمانيّة. وقد استقطب عنوان عريض معظم الصحف بأنّ هدف الرحلة المباشر هو الحجّ إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين وتدشين كنيسة المخلص الإنجيليّة الألمانيّة في القدس. وكتبت صحيفة "السان الحال" تقول، إنّ القدس كمهد للنصرانيّة هي التي جذبت إليها إمبراطور ألمانيا، وإنّ هذه المدينة المقدّسة هي التي جعلت ملوك ألمانيا يرغبون في التيمّن بزيارتها⁽⁸⁾.

إضافة إلى ذلك، اهتمّت الصحافة بشخصيّة الإمبراطور وسلالته. فوصفته بأنه "أكثر ملوك أوروبا نشاطاً وحيويّة"⁽⁹⁾، و"من أعظم ملوك العالم" و"قائد كبير وإمبراطور عظيم"⁽¹⁰⁾ "متحدّر من سلالة الهوهنزرن ذات المجد الأثير والشرف العالي المنير"⁽¹¹⁾. كما وصفته بأنه "إمبراطور بروتستانتّي عظيم معروف بالإقدام والشجاعة"⁽¹²⁾ وشعبه بأنه "أمة حيّة" ينتظرها مستقبل زاهر⁽¹³⁾.

كذلك، تناولت الصحف الصداقة الألمانيّة – العثمانيّة في كثير من تعليقاتها. لوليم الثاني هو "أعزّ أصدقاء السلطان الأعظم" و"أخلص الملوك صدّاقة للذات العاليّة الشاهانيّة"⁽¹⁴⁾ وهذا بـ"أعماله وأقواله"⁽¹⁵⁾ معاً. واعتبرت بعض الصحف أنّ الاستقبال الحارّ الذي يلقيه العاهل الألمانيّ في الدولة العثمانيّة ما هو إلا انقياد الأمتّة العثمانيّة لرغبات سلطانها – هذه الأمتّة التي "تقابل الجميل بالجميل وزيادة"⁽¹⁶⁾، "فإذا أحبّ (سلطانها) أحبّبت، وإذا نفر نفرت"⁽¹⁷⁾.

إلى ذلك، لم تخل تعليقات الصحف من مبالغات في تسييس الزيارة. ورأى بعضها أنّها دليل على "صفاء كأس السياسة والولاء" بين الأمتين الألمانيّة والعثمانيّة،⁽¹⁸⁾ تلك الكأس التي أصبحت مترعة بهذه الزيارة "يتدفق منها الحبُّ والوداد والوفاء"⁽¹⁹⁾ ورأت صحيفة "المؤيد" المصريّة في زيارة وليم الثاني إلى الدولة العثمانيّة "محالفة" بينه، بصفته "عظيم الغرب وعميد أوروبا"، وبين عبد الحميد، بوصفه "أمير المؤمنين كافة وعميد الإسلام كله"⁽²⁰⁾ واعتبرت "ثمرات الفنون" أنّ الاستقبالات التي يلقاها إمبراطور ألمانيا في مدن سوريّة وفلسطين ما هي إلا تعبيراً عن الترحيب الشعبيّ بسياسة ألمانيا الوديّة تجاه السلطنة⁽²¹⁾، في وقت تتحدّ فيه دول أوروبا الكبرى من أجل تجربة تلك الدولة، كما جاء في "المؤيد"⁽²²⁾.

وقبل قليل على قيام الإمبراطور برحلته إلى الشرق، نشرت صحيفة "المؤيد" مقالاً لأحد الكتاب العثمانيّين، رأى فيه أنّ ما يجعل الدولة العثمانيّة تتوجه نحو ألمانيا هو تقدّمها العسكريّ والصناعيّ وأطماع دول أوروبا المستمرّة في ممتلكاتها. وفي المقابل، رأى أنّ على ألمانيا أن تسعى بدورها لكسب صدّاقة السلطنة لأجل ترويج تجارتها، واستخدامها كحليف في أي صراع أوروبيّ مقبل. واعتبر هذا الكاتب أخيراً، أنّ مصالح الدولتين تحتم عليهما دعم بعضهما بعضاً⁽²³⁾.

هذا المديح لأفاق "الصدافة السياسيّة" بين ألمانيا والدولة العثمانيّة، قابله نقد لاذع من جانب "الأهرام" و"المقطّم" للسياسة الألمانيّة تجاه المسألة المصريّة، ومساعي ألمانيا للإستحواذ على ممتلكات الدولة العثمانيّة الآسيويّة وساحل سوريّة وتوطين الفلاحين الألمان فيه، فضلاً عن هيمنتها على التجارة العثمانيّة وفوزها بالامتيازات وامتصاصها ثروات البلاد. وقد اعتبرت "الأهرام" أنّ زيارة وليم الثاني إلى الشرق هي سياسيّة وإقتصاديّة الأهداف، وإنّ ما يُقال عن صداقة أو تحالف بين ألمانيا والسلطنة هو كلام "وهم"، لأنّ ألمانيا تسعى إلى تحقيق مصالحها. فالدعم المعنويّ الذي قدمته ألمانيا إلى السلطنة إبان الأزمة الكريتيّة، أضافت الصحيفة، لم يُكسب السلطنة أي شيء، حيث اضطرت إلى سحب جنودها من تساليا⁽²⁴⁾. وختمت "الأهرام" مطالبة برفض "الصدافة الألمانيّة" بالقول: "نكره أن نكون كالسمك يُطعم الطعمة في الصنارة، تشكمننا بعد قليل، أو كالطير يُنثر لنا الحبّ فوق فخّ منصوب لنا"⁽²⁵⁾.

أمّا "المقطّم"، فلفتت بدورها الانتباه إلى موقف ألمانيا من المسألة المصريّة والأهداف السياسيّة والاستعماريّة من وراء رحلة إمبراطورها، كفرض حمايتها على رعاياها الكاثوليك في الشرق وسعيها للإستيلاء على ساحل سوريّة. فدعت إلى الريبة في "صديقتنا الجديدة" (ألمانيا) "لما وراء صداقتها الخفيّة من الغايات الإستعماريّة والتجاريّة"⁽²⁶⁾.

هذه "التحذيرات" من أخطار "الصدافة الألمانيّة"، قابلتها جريدة "الهدى" بتحفظ، معتبرة أنّ الدول الكبرى لن تسمح لألمانيا بالإستيلاء على سوريّة⁽²⁷⁾. أمّا "المؤيد"، فدافعت عن التقارب الألمانيّ – العثمانيّ ورفضت ما يُشاع عن أنّ وليم الثاني هو من "أنصار الهلال" يعمل على تشجيع المسلمين ضد المسيحيّين بعد حوادث أرمنيا وكريت⁽²⁸⁾. وفي ما يتعلق بالمسألة المصريّة، ذكرت تلك الصحيفة أنّ إمبراطور ألمانيا لم يقل فيها كلمته الأخيرة بعد، وتوقعت أن تكون ألمانيا في وقت ليس ببعيد "أشدّ الدول عداوة لإنكلترا في مصر"⁽²⁹⁾.

2. التحضيرات للرحلة

لما كانت زيارة عاهل أجنبيّ حدثاً غير عاديّ في الدولة العثمانيّة، فقد كان على الجهات الرسميّة العثمانيّة القيام باستعدادات قبل الزيارة وأثناءها، شملت الإشراف على الرحلة وأمنها وتحديد أمكنة نزول الإمبراطور وتعيين لجان الاستقبال والمرافقة، إضافة إلى نشر الزينة وشعارات الترحيب في المدن العثمانيّة وتحسين مرافقها العامّة وبنيتها التحتيّة.

في الواقع، عرض السلطان عبد الحميد منذ البداية على ضيفه أن يقّم له ولحاشيته، انسجاماً مع الضيافة الشرقيّة، كلّ مستلزمات رحلته. إلا أنّ الإمبراطور رفض ذلك، وفضّل أن يُولي شركة كوك (Cook company) هذه المهمة⁽³⁰⁾. ولهذه الغاية، عمدت الشركة المذكورة إلى شراء مستلزمات الرحلة من سجاد وأبسطة وخيام وأوان، وتعاقدت مع مكارين لتقديم الدواب، ومع مترجمين وطهاة وخدم. كما تعهّدت بتقديم كلّ ما يحتاج إليه الإمبراطور من مال طوال رحلته⁽³¹⁾. وسبق ذلك في 30 أيلول، نقل الدواب والجياد الخاصّة من برلين لركوب الإمبراطور في فلسطين وسوريّة⁽³²⁾.

وفور الإعلان عن الرحلة، عمد السلطان عبد الحميد الثاني إلى إعداد قصر لائق لضيفه في حديقة قصر يلدز، على مقربة من القصر الذي كان الإمبراطور قد نزل فيه أثناء زيارته الأولى

للعاصمة العثمانية عام 1889، وفرشه بأحدث الأثاث. وذكرت "الأهرام"، نقلاً عن الصحف الأوروبية، أنّ الإمبراطور لم ينزل في القصر الجديد بسبب الرطوبة لحدائه بنائه وفضل الإقامة في القصر الذي سبق ونزل فيه عام 1889⁽³³⁾.

إضافة إلى ذلك، كلف السلطان منير باشا، رئيس التشريعات، إعداد ترتيبات الزيارة في الأستانة، المحطة الأولى للإمبراطور في الدولة العثمانية⁽³⁴⁾. وجرى تشكيل وفد عثماني رفيع لاستقبال الإمبراطور عند دخوله إلى الدردنيل، مؤلف من رئيس مجلس الشورى ووزراء الخارجية والعدل والزراعة والأحراش، ومن رئيس الأركان شاكراً باشا وعدد من كبار المدنيين والعسكريين⁽³⁵⁾. كما شكّل وفد عثماني آخر لمرافقة الإمبراطور أثناء تجواله في بلاد الشام برئاسة المشير شاكراً باشا والفريق عبدالله باشا⁽³⁶⁾. كما أمر والي كريت جودت باشا بالالتحاق بالوفد العثماني المستقبلي للإمبراطور في فلسطين وسورية⁽³⁷⁾، وكذلك أحمد رستم بك، أحد محرري جريدتي "معلومات" و"ثروت" للقيام بتحقيقات صحفية عن الرحلة⁽³⁸⁾. وفي الوقت نفسه، وصل إلى مدن بلاد الشام خمسة عشر مراسلاً أجنبيّاً وعربياً لتغطية تحركات الإمبراطور⁽³⁹⁾.

وفي ولايتي سورية وبيروت ومنتصرفية جبل لبنان، شكّلت لجان ثلاث برئاسة كلّ من الواليين ناظم باشا ورشيد بك ونعوم بك، متصرف جبل لبنان، للإعداد للرحلة⁽⁴⁰⁾. وقامت هذه اللجان بتعيين وفود الاستقبال من الرسميين المدنيين والعسكريين وأعيان البلاد⁽⁴¹⁾.

وفي الوقت نفسه، جرى تحديد السفن الحربية العثمانية التي ستستقبل يخت الإمبراطور عنه دخوله إلى الدردنيل، وتلك التي سترافق موكبه البحري إلى مينائي حيفا وبيروت وعليهما الوفد العثماني المرافق. وقد أعيد تجديد هذه السفن وطلاؤها⁽⁴²⁾. وجرى أيضاً تحضير الفرق العسكرية المستقبلية وتلك التي ستجري عروضات عسكرية في الأستانة وبيروت ودمشق. ووصل إلى حيفا آلاي خيالة لاستقبال الإمبراطور عند وصوله ومرافقته إلى يافا والقدس⁽⁴³⁾. وذكرت الصحف أنّ الجنود العثمانيين وعددهم ما بين 15.000 - 30.000 جندي، حصلوا لأول مرة على ألبسة عسكرية جديدة⁽⁴⁴⁾.

وللسهر على حياة الإمبراطور، حيث ترافقت زيارته إلى الدولة العثمانية مع اغتيال إمبراطورة النمسا على يد أحد الفوضويين الإيطاليين، وشائعات عن محاولة لاغتيال الإمبراطور الألماني في مصر⁽⁴⁵⁾ أو في فلسطين، عُيّن حرس خاص للعاهل الألمانيّ مكون من 500 من خيالة أرطغرل بقيادة الفريق عبدالله باشا⁽⁴⁶⁾. وعلى الطريق من بيروت إلى دمشق، وضع أربعة آلاف جندي للحراسة. وفي القدس، وضعت 25 نقطة حراسة حول المخيم الذي نزل فيه الإمبراطور. وكان وليم الثاني يعطي نفسه كلّ ليلة كلمة السرّ للدخول إليه⁽⁴⁷⁾. إضافة إلى ذلك، وضعت أعداد كبيرة من البوليس السري العثماني والشرطة لحماية الإمبراطور في المدن السورية ومرافقها⁽⁴⁸⁾. وذكرت "الأهرام" وصول 12 من رجال البوليس السري الألمانيّ إلى يافا والقدس⁽⁴⁹⁾. وقد جرى اعتقال الأجانب المشتبه بهم في العاصمة العثمانية وفي مدن بلاد الشام ولاسيما الإيطاليين منهم، ومنع البحارة الإيطاليين واليونانيين من النزول إلى المرافئ السورية⁽⁵⁰⁾. وفي الأستانة اعتقل أعضاء جماعة "تركيا الفتاة" احترازياً⁽⁵¹⁾.

وحول الاستعدادات والتحضيرات للزيارة في مدن بلاد الشام، أسهبت الصحافة العربية في وصفها. فمن حيفا إلى يافا إلى القدس في بيروت ودمشق وبعليّك، أقيمت الزينات على أنواعها ورفعت

الإعلام والشعاريين الألمانيّ والعثمانيّ (التاج والنسر والطغراء) ولافتات الترحيب بالضيف ومضيفه السلطان عبد الحميد. كما نُصبت أقواس النصر في كلّ مكان⁽⁵²⁾. وفي دمشق، طُلب إلى الأهالي إقامة الزينة لمُدّة ثلاثة أيام، وبلغ عدد الأعلام التي رُفعت في المدينة 28 ألفاً⁽⁵³⁾. وفي بيروت، قامت شركة الغاز بإنارة المرفأ حيث يرسو يخت الإمبراطور، وأقيمت قبة على الرصيف مكان نزول الضيف الكبير. كما تقرّر إنارة جبل لبنان في قضاء الشوف حتى جبل صنين يوم رسو يخت الإمبراطور. وأوعز متصرف جبل لبنان إلى أصحاب المنازل في القرى المشرفة على البحر أن يقيموا الزينة، وأن تُطلق الألعاب الناريّة إحتفالاً⁽⁵⁴⁾. وذكرت الصحف أنّ يافا وسارونة كانتا تتلألآن بالأنوار على طراز بديع، ولم تكن زينتهما أقلّ روعة من زينة القدس⁽⁵⁵⁾.

وباستثناء الأستانة، كان على الإمبراطور أن يبنيّ إمّا على يخته (حيفا وبيروت)، أو في ثكنة عسكريّة (دمشق)، أو في المضارب (برج الخيل، اللطرون، القدس وبعلبك). لذا، انصبت التحضيرات على تجهيز الثكنة العسكريّة في دمشق وفرشها بأجمل المفروشات الشرقيّة المحليّة الصنع لجعلها مكاناً لائقاً لنزول الإمبراطور⁽⁵⁶⁾. وفي عاليه، أُقيم مخيم من عشر خيام لاستراحة الإمبراطور أثناء سفره بالقطار من بيروت إلى دمشق. وقد أحيط بأشجار الأرز والصنوبر وغيرها التي قطعت بخاصّة من غابات لبنان. وفُرشّت أرض المخيم بالرمال الحمراء والصفراء⁽⁵⁷⁾. وفي القدس، أُقيمت المضارب خارج أسوار المدينة على بقعة أرض مساحتها عشرة أفدنة، وبلغ عددها 75 خيمة. وقد اكتست خيمة الإمبراطور بالحريير الأرجوانيّ والأطلسيّ من الخارج والداخل، ووضعت على قمة عمودها المركزيّ التاج الإمبراطوريّ والكرة، وأنير المخيم بالأنوار⁽⁵⁸⁾. وكان السلطان عبد الحميد قد أرسل من الأستانة خيمتين للإمبراطور وزوجته وخيماً أخرى مع أثائها إلى القدس⁽⁵⁹⁾. وفي بعلبك، حيث كان مقرراً أن يبنيّ الإمبراطور ليلة واحدة، تمّ تمهيد أرض قلعتها وتنظيفها من أجل إقامة الخيام عليها⁽⁶⁰⁾. وفي معلقة زحلة، أُقيمت المضارب أيضاً لاستراحة الإمبراطور وتناول الغذاء⁽⁶¹⁾.

وفي كلّ مدن بلاد الشام التي زارها الإمبراطور، أصلحت الطرقات ورُصفت من جديد وطليت الجدران العامّة والخاصة والحوانيت⁽⁶²⁾. ففي دمشق، انصبت الجهود على إصلاح طريق المرجة - البرامكة. وتمّ إصلاح 10-12 ميلاً من طرقات دمشق الداخليّة والخارجيّة، بينما بلغ عدد الحوانيت التي طليت بالألوان 5.000 والجدران حوالي 2.000 متراً مربعاً⁽⁶³⁾. وفي بيروت، أصلحت الطرقات في المرفأ من محطة سكة الحديد حتى محلة النهر وفرشت بالرمال⁽⁶⁴⁾. أمّا في فلسطين، فرُصفت طريق يافا - القدس وفُتحت طريق جديدة من القدس إلى جبل الزيتون لمرور عربة الإمبراطور. كما هُدم العديد من المنازل القديمة في القدس وبيروت وبعلبك، ووسعت الطرقات لتسهيل مرور موكب الإمبراطور⁽⁶⁵⁾. وفي حيفا أعدّ رصيف خاصّ طوله 70 متراً لرسو اليخت الإمبراطوريّ⁽⁶⁶⁾. وأخيراً، أعدت في بيروت ثلاثة عربات فرشت بالحريير الرماديّ والأخضر⁽⁶⁷⁾. كذلك، أعدت بلدية بعلبك إصطبلات للخيل الإمبراطوريّة، وأنشئت ساحة كبيرة أمام مدخل القلعة لوقوف المركبات، وجرى تنظيف خزان المدينة⁽⁶⁸⁾.

3. محطات الرحلة

خلال رحلته في الممالك العثمانيّة، زار الإمبراطور بداية العاصمة العثمانيّة، ثم انتقل بعدها بحراً إلى فلسطين حيث زار مدنها الرئيسيّة. بعد ذلك، انتقل بحراً إلى بيروت، ثم بالقطار إلى دمشق

فبعلبك، وعاد إلى بلاده عن طريق ميناء بيروت. وقد استمرت هذه الرحلة من 16 تشرين الأول حتى 12 تشرين الثاني 1898.

- الأستانة 17 تشرين الأول 1898 - 22 منه

وصل الإمبراطور وليم الثاني وزوجته يوم الإثنين 17 تشرين الأول على متن يخته إلى مياه الدردنيل بحراسة البارجتين الألمانيّتين هيرتا وهيلا، يرافقه وفد من كبار رجال الدولة وعلى رأسهم وزير خارجيته بولو، والمرثمين⁽⁶⁹⁾ وكان الوفد العثمانيّ في استقباله على متن اليخت السلطانيّ عزّ الدين. ووسط هذا، كانت السفن العثمانية والقلاع العسكرية تُطلق مدافعها ترحيباً. وبسبب هبوب عاصفة مفاجئة، تأخّر رسو اليخت الإمبراطوريّ إلى صباح اليوم التالي. ويوم الثلاثاء صباحاً، كان السلطان عبد الحميد الثاني في استقبال نظيره الألمانيّ مع كبار رجال الدولة عند طولمة بغجة، حيث سار معه في موكب كبير إلى قصره في حديقة يلدز مخترقاً شوارع العاصمة التي ازدحمت بالجنود والمواطنين. وخلال زيارته للعاصمة العثمانية، قابل الإمبراطور الألمانيّ السلطان العثمانيّ ثلاث مرّات⁽⁷⁰⁾. وقد حفلت إقامته في الأستانة بحضور المآدب على شرفه وتفقّد معالم المدينة (القرن الذهبيّ - أسوار المدينة - السوق الكبير، مسجديّ آيا صوفيا والسلطان أحمد - طبو قبو) وزيارة معمل هيريكيه لصناعة السجاد والمؤسسات الألمانية (السفارة الألمانية، والنادي، والمدرسة والمستشفى)⁽⁷¹⁾.

وقد بلغت زيارة الإمبراطور للأستانة ذروتها بحضوره خروج السلطان عبد الحميد في موكب كبير لتأدية صلاة الجمعة في جامع حميدية (السلامك)، ثم مشاهدته في أعقاب ذلك عرضاً عسكرياً كبيراً مبدئياً إعجابه بتنظيم الجيش العثمانيّ⁽⁷²⁾.

ويوم مغادرة الإمبراطور وزوجته الأستانة إلى فلسطين، تناولت الصحف لحظة الوداع "المؤثرة". وذكرت "ثمرات الفنون" أنّ لغة الكلام تعطلت بين الضيفين ومضيفهما، وأنّ الدموع انهمرت من عينيّ الإمبراطورة، التي امتدحت السلطان لحسن أخلاقه ولطفه وإخلاص شعبه له⁽⁷³⁾.

- فلسطين 25 تشرين الأول - 4 تشرين الثاني 1898

صباح يوم الثلاثاء 25 تشرين الأول، وصل إمبراطور ألمانيا إلى ميناء حيفا على متن يخته، حيث كان في استقباله واليا سورية وبيروت ومتصرف عكا وكبار رجال الدولة المدنيّين والعسكريّين ونحو عشرين ألفاً من المواطنين. وقد أطلقت مدفعية عكا مدافعها ابتهاجاً⁽⁷⁴⁾. ودامت زيارة العاهل الألمانيّ لفلسطين عشرة أيام، زار خلالها مدن فلسطين الرئيسية حيفا ويافا والقدس وبيت لحم، وعرّج على مناطق أثرية أخرى. وقد استقبله السكان بالترحاب⁽⁷⁵⁾.

وأثناء زيارته إلى حيفا، صعد الإمبراطور إلى جبل الكرمل وزار القنصلية الألمانية في المدينة وديريّ الراهبات الكاثوليكيّات والبروتستانتية⁽⁷⁶⁾. كما استقبل الأب بيفر، مدير المستعمرة الكاثوليكية الألمانية في الطبعة⁽⁷⁷⁾. وفي حيفا، التقى ألمان من "جماعة الهيكل" (التمبلر) وتفقد مؤسساتهم⁽⁷⁸⁾.

وفي 26 تشرين الأول، قصد الإمبراطور يافا على صهوة جواده، فمرّ على عتليت وقيسرية وتفقد آثارها، ثم بات ليلته في برج الخيل⁽⁷⁹⁾. وفي صباح اليوم التالي، مرّ بمضارب

عرب الهوجاء، وشاهد عرضاً فروسياً⁽⁸⁰⁾. وعند المغيب، وصل إلى يافا، حيث استقبله الوفد الرسمي العثماني وكبار علماء المدينة وسكان مستعمرة سارونة يتقدمهم قنصل ألمانيا⁽⁸¹⁾.

وبعد أن زار الإمبراطور اللطرون يوم الجمعة 28 تشرين الأول، وبات ليلته فيها، دخل القدس في اليوم التالي في موكب عظيم وسط دويّ المدافع وألحان الموسيقى. وذكرت "ثمرات الفنون" أن 200 ألف شخص كانوا في إستقباله⁽⁸²⁾. وخلال يومي السبت والأحد، كان برنامج الإمبراطور حافلاً: زيارة القبر المقدّس في كنيسة القيامة، حيث استقبل بخطابات ترحيب من قبل بطاركة الطوائف الثلاث: اللاتين والأرمن والأرثوذكس. وذكرت "المقطم" في هذه المناسبة أن البابا بعث إلى رؤساء الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين بأن يحتفلوا بالإمبراطور كرجل عاديّ غير كاثوليكيّ، لأنّ قوانين الكنيسة لا تجيز غير ذلك⁽⁸³⁾. كما زار الإمبراطور كنيسة المهد في بيت لحم، وحضر تدشين الكنيسة الإنجيليّة الألمانيّة في تلك المدينة. كما صعد إلى جبل الزيتون في القدس وزار كنيسة القديس جاورجيوس الإنكليزيّة.

بلغت زيارة وليم الثاني إلى القدس ذروتها بتدشينه كنيسة المخلص الإنجيليّة الألمانيّة⁽⁸⁴⁾ يوم الإثنين 31 تشرين الأول. وذكرت "النشرة الأسبوعيّة" أن الإمبراطور هو الذي اختار هذا التاريخ بنفسه، لأنه كان يُصادف يوم بدء حركة الإصلاح الدينيّ في ألمانيا في 31 تشرين الأول 1517⁽⁸⁵⁾ وبعد ظهر اليوم نفسه، تسلّم الإمبراطور قطعة أرض الدورومثيون في النبي داوود هديّة من السلطان إليه⁽⁸⁶⁾. ووعده وليم الثاني في هذه المناسبة ببناء كنيسة للكاثوليك الألمان عليها⁽⁸⁷⁾. وأعقب ذلك زيارته لدير الأرمن وبطريركيّة الروم الأرثوذكس. أمّا ما تبقى من برنامج رحلته إلى القدس، فكان زيارة الحرم الشريف وجامع سيدنا عمر، والمسجد الأقصى، وبرك سليمان، والمستشفى الألمانيّ، ودار الأيتام السوريّة، وقبور السلاطين⁽⁸⁸⁾.

- بيروت - دمشق - بعلبك: 5 تشرين الثاني - 12 منه

بعد أن أنهى وليم الثاني زيارته إلى فلسطين، غادرها بالقطار إلى يافا في 4 تشرين الثاني ومنها إلى بيروت التي وصلها بحراً يوم السبت في الخامس من تشرين الثاني. وكان في انتظاره نحو 50 ألفاً من سكان المدينة، ومن بينهم طلبة المدارس التي أفلتت صفوفها في هذه المناسبة. ويوم الأحد، صعد الوفد العثمانيّ برئاسة شاكر باشا ورشيد بك يرافقهما عبد القادر قباني، رئيس بلدية بيروت، إلى اليخت الإمبراطوريّ، وقدموا للإمبراطور هديّة مدينة بيروت عبارة عن مصنوعات شرقيّة كتبت على غلافها العبارة العربيّة التالية: "تقدّمة لحضر حشمتلو إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا العظيمين من بلدية بيروت تذكّاراً لتشريفهما في سنة 1898/1316"⁽⁸⁹⁾.

وبعد غداء مع الوفد العثمانيّ على ظهر يخته، نزل الإمبراطور إلى البرّ وزار المستشفى البروسيّ واجتمع بأطبائه الأميركيين. ثم واصلت الإمبراطورة زيارة المدرسة الألمانيّة لشمّاسات القيصرزفرت، فيما اتجه الإمبراطور ناحية الثكنة العسكريّة حيث شاهد هناك عرضاً عسكريّاً⁽⁹⁰⁾ أعقب ذلك زيارته للحديقة العسكريّة في محلة الحرج⁽⁹¹⁾.

ومن بيروت، واصل الإمبراطور رحلته بالقطار إلى دمشق يوم الإثنين في السابع من تشرين الثاني عبر جبل لبنان، وسط معالم الزينة المعهودة وإستقبالات المسؤولين والسكان في

البلدات. وفي عاليه، استقبله الرسميون اللبنانيون، وعلى رأسهم المتصرف نعوم باشا وسط عزف النشيديين الألمانيّ والعثماني. وبعدهما استراح الإمبراطور في سرادق أقيم له، وتدوق بعض الشمبانيا وشاهد عرضاً فروسياً، وآخر بالسيف، تابع سفره، فبلغ سعدنايل ثم معلقة زحلة. وذكرت "البشير" أنّ ما لا يقلّ عن 60 ألف شخص احتشدوا في محطة المعلقة لإستقباله. وقد رُفعت أقواس النصر وكتب على إحدى جهاتها: "فليحيى سلطاننا الغازي عبد الحميد خان" وعلى الجهة الأخرى "فليحيى إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا".⁽⁹²⁾

وبعد استراحة غذاء في المعلقة، واصل الإمبراطور سفره إلى دمشق، فبلغها في المساء حين وصل إلى محطة البرامكة، ومن هناك سار على صهوة جواده، وزوجته جالسة في مركبة، مخترباً شوارع المدينة وسط دويّ المدافع وتحيات الجماهير الغفيرة. فبلغ تكيّة السلطان سليم ثم جسر الحديد، حيث كان في إستقباله طلبة المدارس المدنيّة والعسكريّة. ثم وصل إلى التكنة العسكريّة التي نزل فيها طوال إقامته⁽⁹³⁾. وقد وصفت "المقطم" استقبال العاهل الألمانيّ في دمشق بأنّه كان حافلاً جداً، وأنّ أهالي المدينة أظهروا الابتهاج والسرور بقدومه، وهذا ما لا يُشاهد عادة في الشرق وأنّ المدينة زينت بأبهى زينة⁽⁹⁴⁾.

وأثناء إقامته في دمشق التي استمرّت حتى صباح الخميس 9 تشرين الثاني، زار وليم الثاني الجامع الأمويّ وضريحيّ النبي يحيى والسلطان صلاح الدّين. كما زار قصر آل العظم في البزورية ومنازل جبران شاميّة⁽⁹⁵⁾ وناظم باشا ولوتيكة، فنصل ألمانيا في دمشق. إضافة إلى ذلك، تفقد العاهل الألمانيّ معالم المدينة وصعد إلى جبل قاسيون، وحضر عرضاً عسكرياً وفروسياً في المرجة، بينما زارت قرينته دُمر. ومساء الثلاثاء 7 تشرين الثاني، أقامت بلدية دمشق مأدبة عشاء كبرى على شرفه⁽⁹⁶⁾.

وبحماية ألف من فرسان العرب⁽⁹⁷⁾، غادر الإمبراطور دمشق يوم الخميس 11/10 متوجّهاً إلى بعلبك، التي وصلها عند المغيب، حيث كانت قد أعدت له مضارب للمبيت داخل القلعة عند "هيكل الشمس". وجرى توقيت زيارته إلى بعلبك بحيث يكون القمر بديراً كيّ ينير النواحي وهو وسط الهيكل⁽⁹⁸⁾. وقام الإمبراطور بتفقد القلعة وسط عزف النشيد الألمانيّ⁽⁹⁹⁾. وقد أُلقت إحدى بنات حبيب باشا مطران⁽¹⁰⁰⁾ كلمة ترحيب بالفرنسيّة، ثم وجّهت كلامها إلى الإمبراطورة قائلة: "إنّ هيكل بعلبك لدى نظره أنّك أعظم رأس متوجّ راه منذ ألف وخمسمائة سنة، ينحني إجلالاً بكل مجده الماضي القديم أمام مجدك الحاضر العظيم".⁽¹⁰¹⁾

وفي اليوم التالي (الجمعة 11 تشرين الثاني)، قدم الأديب مخايل ألوف إلى الإمبراطور كتابه حول تاريخ بعلبك⁽¹⁰²⁾. وعقب ذلك، أراح الإمبراطور الستار عن لوحة تذكاريّة أمر السلطان بإقامتها بمناسبة زيارته إلى بعلبك. وكانت عبارة عن قطعة رخاميّة بيضاء طولها أربعة أمتار وعرضها متران، أحيطت بالفيسفساء السوداء والحمراء وقسمت إلى قسمين متساويين حملا في أعلاها الشعار الألمانيّ والطغراء العثمانيّة، وكتب تحتها باللغتين الألمانيّة والعثمانيّة عبارة "تذكّار الولاء الراسخ بين جلاله السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني وبين جلاله الإمبراطور غليوم الثاني".⁽¹⁰³⁾ وقد استحسّن الإمبراطور نقل اللوحة الرخاميّة من قبالة الدهليز، الذي يُدخّل منه إلى القلعة، إلى "هيكل المشتري"، ووضعها إزاء الأعمدة المشهورة. ثم أخذ معولاً مكبّساً بالذهب وضرب الحائط ثلاث مرّات. وفي تلك الأثناء، كان الرسام الإمبراطوريّ يلتقط الصور للعاهل

الألمانيّ أثناء وقوفه أمام اللوحة. بعد ذلك، تفقّد الإمبراطور "هيكل الزهرة" و"الحائط الفينيقي" (104).

هكذا، وصلت رحلة وليم الثاني إلى الشرق إلى نهايتها. فغادر بعلبك إلى بلاده عن طريق المعلّقة فعاليه فيبيروت يوم السبت 12 تشرين الثاني. وكتبت "الأهرام" تقول: "وهكذا، انتهت هذه الرحلة العظيمة التي سيكون لها في التاريخ ذكر خالد وأثر عظيم". (105)

4. كلمات الإمبراطور وكلماته

رغزت كلمات الإمبراطور وخطبه على ثلاثة موضوعات: حفاوة الإستقبال النابعة من الصداقة الألمانية – العثمانية، ودعم الوجود الألمانيّ في السلطنة، وأخيراً إظهار ولائه للمسلمين وللسلطان العثمانيّ كخليفة عليهم.

انتهز وليم الثاني كلّ مناسبة لإظهار سروره بحفاوة الإستقبال الذي كان يلقاه من السلطان وشعبه. وقال في إحدى المرّات، إنّ ما وقّره له السلطان عبد الحميد من أسباب الراحة في رحلته كان بمثابة حنو الأب على ابنه (106). واعتبر الإمبراطور أنّ طريق الصداقة التي سلكها والده الإمبراطور فريديريك وليم تجاه السلطنة، قد توطّدت برحلته الأخيرة وظهرت "ثمارها الشهية". كما أكد "أنّ أمتين، بالرغم من اختلافهما في الجنس والمذهب، تستطيعان أن تكونا في ولاء وتحاب... وتتبادلان عضد أحدهما الأخرى". (107) لقد كانت الصداقة الألمانية – العثمانية برأيه، هي التي فتحت أبواب فلسطين أمامه وجعلته يحجّ إلى الأراضي المقدّسة. وفي خطابه الذي ألقاه بمناسبة تدشين كنيسة المخلص الإنجيليّة، انتقد العاهل الألمانيّ "الفرنجية" بدخولهم فلسطين بحد السيف، فيما دخلها هو بقوة السلام (108). وقبل مغادرته بيروت عائداً إلى بلاده، أبلغ الإمبراطور الوفد العثمانيّ المرافق أنّه لن ينسى رحلته إلى الشرق، وأنّه يقدر الصداقة التي تربطه بالسلطان العثمانيّ. وتمنى لعبد الحميد الثاني "أن تكون أيامه مديدة محفوفة بالتوفيق والنجاح" (109).

ولم يقتصر سرور العاهل الألمانيّ على الإجراءات الرسميّة العثمانية التي أدّت إلى نجاح سياحته فحسب، بل على ما لاقاه "من إحساسات وعواطف" الشعب العثمانيّ. فاعتبر أنّ آثار التعظيم التي لقيها في ثغر بيروت دليل على إيمان الشعب العثمانيّ بالصداقة الألمانية – العثمانية (110). ولكثرة سروره من إستقبال الدمشقيين له، قال "إنّه لم يرم منذ جلوسه على سرير الملك جمعاً رحّب به وابتهج بقدمه أكثر مما رحّب به أهل دمشق الفيحاء". (111) وقال لناظم باشا "أنّ إمبراطوراً يريد أن يرى احتراماً فائقاً فليأت إلى دمشق". (112) وذكر خليل سركيس، صاحب "لسان الحال"، أنّ الإمبراطور قال من شدّة إعجابه بدمشق: "ما على الأرض أجمل من دمشق. ما على الأرض أجمل من دمشق" (113). كما شاع أنّه قال في دمشق: "لو يأتي شعبي المؤلف من أربعين مليوناً من الألمان إلى هذه البلاد، فيتعلمون إذ ذاك كيف يُستقبل الملوك في الشرق". (114)

كذلك، عكست تصريحات الإمبراطور هنا وهناك التأكيد على نجاح سياسته الشرقية. فإقبال الأتراك على المدارس الألمانية، كان برأيه دليلاً على نجاح الثقافة الألمانية "وانتصاراً للعنصر الجرمانى" (115). واعتبر أثناء وجوده في الأستانة، أنّ تلك السياسة كانت "مصدر بركات" للألمانيين المقيمين في الدولة العثمانية (116)، حيث انتفعوا بها ونالوا بسببها "مقاماً رفيعاً" في الدولة (117). وحين التقى "جماعة الهيكل" في فلسطين، أبلغهم الإمبراطور عن سروره لعدم تخليهم عن وطنيتهم، وأكد لهم أنّه سيعمل مع السلطان عبد الحميد كيّ يكون مستقبلهم مضموناً في تلك البلاد (118). إنّ

تشديد العاهل الألمانيّ على "الوطنية" كان يستلزم منه سياسة تقوم على المساواة بين رعاياه وعلى أساس المذهب. وقد تجسّد ذلك أثناء الإحتفال بتسلمه أرض الدورومثيون في النبي داود، حين قال: "إنّه، كما بنى كنيسة لرعاياه لألمان البروتستانت، فسوف يبني كنيسة لرعاياه لألمان الكاثوليك على قطعة الأرض" التي أهداه إياها السلطان عبد الحميد.⁽¹¹⁹⁾ وفي هذا السياق، أكد على حمايته لرعاياه الكاثوليك⁽¹²⁰⁾، وطالبهم بأن "يثقوا دائماً بحماية (ه) الملكية، كلما شعروا بالحاجة إليها في أي مكان وزمان كان".⁽¹²¹⁾

وعلى الرغم من كلّ ما قيل حول كلمات الإمبراطور الألمانيّ وخطبه، تبقى تصريحاته في دمشق يوم الثلاثاء 8 تشرين الثاني أمام ضريح السلطان صلاح الدين وفي مأدبة العشاء على شرفه في مبنى بلديتها، أبرز ما قيل سياسياً خلال الرحلة واستقطب الإهتمامين المحليّ والدوليّ⁽¹²²⁾.

يوم الثلاثاء صباحاً، زار الإمبراطور ضريح السلطان صلاح الدين، حيث وضعت زوجته عليه إكليلاً من الزهر كتب عليه بالعربية: "غليوم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكاراً للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي".⁽¹²³⁾ وقد اتفقت كلّ من "المنار" و"المؤيد" على أنّ الإمبراطور وقف لبرهة ساكناً أمام لحظة الموقف، ثم بسط يديه وكأنه يستنزل الرحمة عليه، وقال، إنّ صلاح الدين كان الآية الكبرى في زمانه في الشهامة والعدل والكرم.⁽¹²⁴⁾

ولم يكن هذا الموقف الصباحيّ ابن ساعته. فعشيّة اليوم نفسه، حضر الإمبراطور مأدبة عشاء كبرى على شرفه أقامتها بلدية دمشق، ألقى خلالها الشاب سليم ثابت كلمة بالفرنسية ختمها بالعربية دارت حول التعايش الإسلاميّ – المسيحيّ في السلطنة. ثم تبعه الشيخ محمد علي الكزبري، فخطب نيابة عن أهل دمشق مرحباً بالإمبراطور ومشيراً إلى الصداقة التي تربطه بالسلطان وما له من "الأيادي البيضاء والمساعدات" للأمة العثمانية، ما جعله يحتل مكاناً في قلوب العثمانيين والمسلمين.⁽¹²⁵⁾

وقد ردّ الإمبراطور على كلمة الشيخ الكزبري بخطاب أعلن فيه عن سروره بوجوده "... في مدينة عاش بها من كان أعظم أبطال الملوك الغابرة بأسرها الشهم الذي تعالى قدره بتعليمه اعدائه كيف يكون الأبطال، ألا وهو المجاهد الباسل السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبي، منتهزاً هذه الفرصة لأن أبين قبل كلّ شيء، بسرور لا فريد عليه، تشكراتي لحضرة ذي الشوكة السلطان عبد الحميد خان الذي أفتخر بخالص محبته وجميل مجاملته". وأضاف الإمبراطور قائلاً: "ليوقن حضرة صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلاثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته العظمى ارتباطاً قوياً، والمنتشرين في جميع أنحاء الكرة الأرضية، أنّ إمبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم إلى الأبد...".⁽¹²⁶⁾

لقد كان لهذا الخطاب وقع كبير على مسلمي بلاد الشام⁽¹²⁷⁾. أولاً، لأنّه امتدح قائداً عسكرياً وسياسياً فداً دافع عن دار الإسلام ضد حملات الفرنجة، وثانياً، لأنّه تطرّق إلى الخلافة الإسلامية المتمثلة بعبد الحميد وبروابط "الجامعة الإسلامية" التي تشدّ المسلمين إلى سدة الخلافة. ورأت "المنار" أنّ ما جعل وليم الثاني يمتدح صلاح الدين ويظهر له احترامه هو أنّ الإمبراطور رجل حرب ورئيس أعظم جيش في العالم، بينما صلاح الدين أعظم رجل حرب في عصره، ومن سجايا البشر أنّ البارع في شيء يحترم ما هو مثله في طبقة، وإن كان خصمه. "وفي الحروب"، أضافت المنار، "فالشجاع الباسل يأسف... على الباسل إذا قتل ولو بسيفه..".⁽¹²⁸⁾ وفي هذا المعنى،

علقت "المؤيد" على الخطاب، معتبرة أنّ صفات صلاح الدين الشريفة كان لها تأثير مغناطيسيّ على الإمبراطور الألمانيّ، وهو ما حوّب وليم الثاني بصلاح الدين، "وإن كان الأول (وليم الثاني) من دعاة المسيحية في القرن التاسع عشر، وصلاح الدين من حماة الإسلام ودعاته في القرن الثاني عشر". (129)

وبمناسبة إهداء وليم الثاني ضريح صلاح الدين ثانياً بُعيد اندلاع الحرب العالمية الأولى، علقت صحيفة "أببيل" البيروتية على حادثة زيارة الإمبراطور الألمانيّ لضريح صلاح الدين عام 1898، وبمفعول رجعيّ، متسائلة هل السبب في ذلك أنّ الإمبراطور افتتن بعلوم صلاح الدين العسكرية وفنونه الحربية، أو أنّه "وقف على أساس الدين الإسلاميّ المبين وأيقن أنّه هو المنهج القويم والصرّاط المستقيم". (130)

أخيراً، تبقى كلمة الشاب سليم ثابت في مأدبة العشاء تكريماً للضيف الألمانيّ حول التعايش الإسلاميّ - المسيحيّ، والتي جعلت الإمبراطور يستدعيه في اليوم التالي ويقول له: "إنّ وزن خطابك أمس ساورني في الحلم" (131). وفسّرت مجلة "الجامعة العثمانية" كلام الإمبراطور سياسياً، أراد به أن يعيّر عن إعجابه بالتعايش الإسلاميّ - المسيحيّ في السلطنة وبأوضاع المسيحيّين فيها، مقارنة بأوضاع الأقليات الدينية الخاضعة لحكم الإستعمار، على عكس ما كان يُشاع في الإعلام الغربيّ. وقالت، إنّ وليم الثاني قد أبدى إعجابه بالجامعة العثمانية (= الرابطة العثمانية)، لأنّها تؤمّن سلامة الدولة من الداخل، وبالجامعة الإسلامية لأنّها تقوّي من الروابط المعنوية بين كرسيّ الخلافة والمسلمين في العالم، وتجعل العدو يحسب حسابها. واعتبرت "الجامعة العثمانية" أنّ موقف الإمبراطور هذا، قد أفاد "الجامعة الإسلامية" بنفيه وصفها بالخطرة على العالم. لكنها رأت في المقابل، أنّ الإمبراطور يستفيد من "الجامعة الإسلامية"، إذ "ليس قليلاً صداقة ثلاثمائة مليون من المسلمين". وختمت المجلة تعليقها، بأنّ التاريخ سوف يقول عن إمبراطور ألمانيا في المستقبل: "لقد حكم ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ملك شاب كرهت نفسه الكبيرة العادلة أن تكون في جملة النور الطامعة التي كانت تحوم بشراهة وجشع على بلاد الدولة العثمانية". (132)

5- استنتاج

لا يمكن، في الواقع، فصل رحلة الإمبراطور الألمانيّ إلى الشرق عن سياسته تجاه الدولة العثمانية. فمذ ارتقائه العرش، عمل على ممارسة سياسة التدخّل المباشر والمكثّف في الدولة العثمانية ومناهضة الدول الأوروبية الأخرى على صعيد التنافس الإمبرياليّ في السلطنة. لكن، ما يعطي رحلته طابعاً خاصاً، هو أنّها جاءت متزامنة مع سياسة ألمانيا للحفاظ على سيادة السلطنة واستقلالها في وجه الأطماع الأوروبية في ممتلكاتها. صحيح، إن ألمانيا لم تظهر اهتماماً في الاستيلاء على ممتلكات السلطان العثمانيّ، كما فعلت غيرها من الدول الكبرى، إلا أنّها كانت في الحقيقة مجبرة على ذلك. فعندما اكتملت مكونات إمبرياليتها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانت الدول الأوروبية الرئيسية، بريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا، قد استولت على ما يمكن الاستيلاء عليه من ممتلكات الدولة العثمانية، ما جعل ألمانيا لا تجد مكاناً تستحوذ عليه. ففرنسا استقرّت في الجزائر وتونس وتطلّعت للإستيلاء على المغرب الأقصى وعلى بلاد الشام، وبريطانيا استولت على قبرص وعلى مصر وفرضت هيمنتها على السودان، فيما قضت روسيا والنمسا معظم ممتلكات السلطان في البلقان. من هنا، لم يكن أمام ألمانيا خياراً سوى "الزحف"

السلمي نحو الشرق، أي التغلغل الاقتصادي والتجاري، مما فرض عليها سياسة الحفاظ على الدولة العثمانية والوقوف في وجه مشاريع تقسيمها. فكانت سياستها هذه، أكثر فائدة لها من الاستعمار المباشر.

بناءً عليه، تمكنت ألمانيا أن تكون "الدولة الأكثر تفضيلاً" لدى السلطان العثماني. وهذا ما مكّن الإمبراطور وليم الثاني خلال رحلته إلى الشرق، من أن يعقد سلسلة من الاتفاقات الاقتصادية مع الدولة العثمانية، وفي مقدمها الحصول على امتياز خط سكة حديد بغداد، وبعد ذلك تقديم الخبرة الفنية الألمانية لمشروع سكة حديد الحجاز. ولم يقتصر صدى سياسة ألمانيا الإسلامية على الدوائر الرسمية العثمانية فحسب، بل وجد الإمبراطور حماسة "شرقية" لافتة خلال زيارته إلى بلاد الشام. صحيح، إن الصحافة العربية انقسمت على بعضها في شأن تقويم رحلته إلى الشرق بين مؤيد وناقذ، ولاسيما الصحافة المصرية التي أضاعت على الأهداف الإمبريالية لألمانيا في الدولة العثمانية، إلا أنها، ومعها مسلمو بلاد الشام، اعتبرت الرحلة حدثاً فريداً في تاريخ الدولة العثمانية المعاصر والمنطقة تحديداً.

كانت أصداء سياسة ألمانيا الإسلامية و"صداقتها" تجاه الدولة العثمانية قد سبقت وصول وليم الثاني إلى برّ الشام. لذا، خرجت الجماهير لاستقباله، ليس كزائر عادي، وإنما كحليف للإسلام وللسلطان عبد الحميد الثاني. وقد عرف الإمبراطور بفنّ كيف يجذب إليه المسلمين. فخطابه في دمشق وزيارته لضريح السلطان صلاح الدين، حركا عندهم مشاعر الافتخار بأنّ هناك أمة أجنبية تساند خلافتهم الإسلامية. من هنا، جاء اعتقاد بعضهم بأنّ اندفاع العاهل الألماني لدعم السلطنة في مواجهة أعدائها، دليل على اقتناعه بالدين الحنيف. لذا، لفتت صحيفة "أببيل" البيروتية الانتباه إلى إمكانية أسلمته. وبذلك تكون دعوة هذه الصحيفة وليم الثاني إلى الإسلام، قي سبقت خطاب الشماخي وابن إسماعيل إلى العاهل الألماني بسنوات.

الحواشي

(1) لمعلومات إضافية حول رحلة إمبراطور ألمانيا إلى الدولة العثمانية في عام 1889، انظر:

C.A. Engelbrechten, Kaiser Wilhlem Orientreise und deren Bedeutung für den deutschen Handel. Neue Bahnen und Wege für den deutschen Ausfuhrhandel, Berlin 1890.

Fritz Fisher, Griff nach der Weltmacht. Die Kriegszielpolitik des kaiserlichen Deutschland 1914/18 [1961], 4th ed., Düsseldorf: Droste 1971, pp. 16ff. (2)

(3) أنظر فوق ص؟؟؟

William Miller, The Ottoman Empire and the Successors [1913], new imp, London: Frank Cass (4)

1966, p. 431; Jehuda L. Wallach, Anatomie einer Militärhilfe, Düsseldorf: Droste 1976, pp. 104-106, 114.

(5) حول الانتقادات التي وُجّهت إلى السلطان عبد الحميد الثاني بسبب تمييزه الفاحش على الرحلة، أنظر: **المقطم**، "نهاب وهاب"، عدد رقم 2832، 1898/7/20، ص 1-2؛ المرجع نفسه، "ماذا يقول الإمبراطور فينا"، عدد رقم 2924، 1898/11/5.

(6) **المؤيد** 1898/10/4، "السياسة الألمانية" (في مصر). بسبب التلف الكبير الذي لحق بهذه الصحيفة المحفوظة

- في "دار الكتب القومية" بمصر، لم أتمكن في بعض الأحيان من معرفة أرقام أعدادها.
- (7) يعود التباين في موقف الصحافتين السوريّة والسوريّة من مسألة الزيارة، إلى خضوع الشام للحكم العثمانيّ المباشر من جهة، ما جعل صحافتها تخضع للرقابة المسبقة أو للرقابة الذاتية. من جهة أخرى، تمتعت الصحافة المصريّة تحت الاحتلال البريطانيّ بحرية أكثر في إبداء الرأي، علماً أن كبريات الصحف المصريّة كانت تُدار من قبل أسر سوريّة.
- (8) *لسان الحال* 2954، 1898/10/29، ص 3.
- (9) *لسان الحال* 2968، 1898/11/16، "نظر عامّة في السياحة الإمبراطوريّة"، ص 1.
- (10) *الهلال* 19 (1898)، ص 744.
- (11) *الأهرام* 6257، 1898/10/21 "أخبار سوريّة – القدس"، ص 1.
- (12) *المشرق* 22 (1898) "زيارة ملوك هوهنزولرن للاراضي المقدّسة"، ص 1050-1051.
- (13) *الأهرام* 6208، 1898/8/25 "زيارة الإمبراطور غليوم للشرق"، ص 1.
- (14) *الموسوعات* 3 (1898)، "الألمان في مضمار الحياة"، ص 91.
- (15) *المصباح* 1269، 1898/8/27، "حضرة الإمبراطور الألماني"، ص 1؛ 1278، 1898/11/5، ص 1؛ "الإمبراطور غليوم"، 1276، 1898/10/15، ص 1؛ 1279، 1898/11/12، "حضرة الإمبراطور والإمبراطورة في بيروت"، ص 1.
- (16) *لسان الحال* 2968، 1898/11/16، ص 1.
- (17) *ثمرات الفنون* 1026، 1898/11/14، "زيارة حضرة الإمبراطور والإمبراطورة لمدينة دمشق"، ص 4.
- (18) *الأهرام* 6257، 1898/10/21، ص 1.
- (19) *لسان الحال* 2949، 1898/10/14، ص 1.
- (20) *لسان الحال* 2968، 1898/11/16، ص 1.
- (21) *المؤيد* 1898/9/24، "أمير المؤمنين وحليفه القيصر الألماني"، ص 2.
- (22) *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 1-4.
- (23) *المؤيد* 2614، 1898/11/7، "زيارة القيصر الألمانيّ لجلالة السلطان عبد الحميد الثاني".
- (24) *المؤيد* 1898/9/24، ص 1-2.
- (25) *الأهرام* 6163، 1898/7/4، "الدولة العلية وألمانيا"، ص 1؛ 6155، 1898/6/24، ص 1؛ 6261، 1898/10/26، "جلالته في حيفا"، ص 1.
- (26) *الأهرام* 6155؛ 1898/6/24، ص 1.
- (27) *المقطم* 2918، 1898/10/19، "حمية المسيحيّين في الشرق"، ص 1؛ 2929، 1898/11/11، "إمبراطور ألمانيا وبرّ الأناضول"، ص 1؛ 2937، 1898/11/21، "ألمانيا والمسألة المصريّة"، ص 1؛ 2945، 1898/11/30، "صديقتنا الجديدة"، ص 1.
- (28) *الهدى* 35، 1898/10/18، ص 12-13.
- (29) *المؤيد* 2614، 1898/11/7، "زيارة القيصر الألمانيّ لجلالة السلطان عبد الحميد الثاني"، ص 1.
- (30) *المؤيد* 1898/10/4، "السياسة الألمانيّة (في مصر)"، ص 1.
- (31) *المقطم* 2856، 1898/8/18، ص 1.
- (32) *المصباح* 1269، 1898/8/27، ص 1-2؛ 1280، 1898/11/9، ص 1؛ *الأهرام* 6212، 1898/8/20، ص 1.
- (33) *لسان الحال* 2932، 1898/10/4، ص 1.
- (34) *الأهرام* 6262، 1898/10/27، ص 1.
- (35) *المصباح* 1269، 1898/8/27، ص 1.
- (36) *الأهرام* 6258، 1898/10/23، ص 2؛ *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 1.
- (37) *المصباح* 1269، 1898/8/27، ص 1-2.
- (38) *المصباح* 1269، 1898/8/27، ص 2.
- (39) *مصباح الشرق*، 1898/11/2، ص 2.
- (40) *البشير* 1357، 1898/10/31، ص 2.
- (41) *المصباح* 1269، 1898/8/27، ص 2.

- (41) الأهرام 6261، 1898/10/26، ص 1؛ المصباح 1275، 1898/10/8، ص 1؛ 1278، 1898/11/5، ص 2؛ المقطم 2934، 1898/11/17، ص 2.
- (42) ثمرات الفنون، 1204، 1898/10/31، ص 1؛ طرابلس (الشام) 279، 1898/10/13، ص 1.
- (43) الأهرام 6258، 1898/10/23، ص 2؛ 6261، 1898/10/26، ص 1.
- (44) لسان الحال 2944، 1898/10/18، ص 2؛ 6261، 1898/10/26، ص 1.
- (45) كان من المقرر أن يزور الإمبراطور الألماني مصر أثناء رحلته إلى الشرق، لكنه عدل عنها في اللحظة الأخيرة، مما أدى إلى تعليقات في الصحافة العربية. فتحدث بعضها عن محاولة لاغتياله في مصر. المقطم 2905، 1898/10/14، "سفر الإمبراطور الألماني إلى فلسطين"، في حين رأت صحيفة الهدى أن سبب الإلغاء يعود إلى خشية الإمبراطور من أن تُفسر زيارته لمصر على أنها اعتراف بسيادة الخديوي على تلك الولاية، أو سيادة بريطانيا عليها، مما قد يُغضب السلطان العثماني. الهدى 35، 1898/10/18، ص 12-13. أما صحيفة المؤيد (1898/11/15، ص 1)، فاعتبرت أن إلغاء الزيارة كان مقصوداً من قبل الإمبراطور لسبب سياسي، وهو كي لا تستغلها بريطانيا لمصلحتها وتقوي من نفوذها في مصر. كما اعتبرت الصحيفة أن ذلك دليل "على أن ألمانيا لا يوافق مصلحتها مطلقاً أن تختص انكلترا بمصر".
- (46) الأهرام 6258، 1898/10/23، ص 2.
- (47) الأهرام 6280، 1898/11/17، ص 1؛ 6274، 1898/11/10، ص 2.
- (48) المقطم 2923، 1898/11/14، ص 1-2؛ لسان الحال 2941، 1898/11/14، ص 1؛ 2956، 1898/11/2، ص 1.
- (49) الأهرام 6261، 1898/10/26، ص 1.
- (50) المقطم 2903، 1898/10/12، ص 1؛ 2920، 1898/11/1، ص 1؛ 2920، 1898/11/1، ص 1؛ لسان الحال 2956، 1898/11/2، ص 1؛ الأهرام 6257، 1898/10/21، ص 1.
- (51) المقطم 2903، 1898/10/12، ص 1.
- (52) الأهرام 6161، 1898/10/26، ص 1؛ 6273، 1898/11/9، ص 1.
- (53) الأهرام 6281، 1898/11/18، ص 1.
- (54) المصباح 1278، 1898/11/5، ص 2؛ لسان الحال 2954 (كذا)، 1898/10/31، ص 2؛ البشير 1358، 1898/11/7، ص 2؛ الأهرام 6275، 1898/11/11، ص 1.
- (55) لسان الحال 2958، 1898/11/4، ص 1.
- (56) البشير 1359، 1898/11/12، ص 2.
- (57) لسان الحال 2954 (كذا)، 1898/10/31، ص 2؛ الأهرام 6280، 1898/11/17، ص 1.
- (58) الأهرام 6267، 1898/11/2، ص 1؛ 6273، 1898/11/9، ص 1.
- (59) ثمرات الفنون 1204، 1898/10/13، ص 7.
- (60) الأهرام، 6257، 1898/10/21، "أخبار سوروية - القدس"، ص 1.
- (61) البشير 1359، 1898/11/12، ص 1.
- (62) ثمرات الفنون، 1204، 1898/10/13، ص 7.
- (63) البشير 1359، 1898/11/12، ص 1.
- (64) المصباح، 1278، 1898/11/5، ص 2.
- (65) المقطم 2856، 1898/8/18، ص 1؛ 2928، 1898/11/10، ص 2؛ الأهرام 6257، 1898/10/21، ص 2.
- (66) المصباح 1269، 1898/8/27، ص 2.
- (67) ثمرات الفنون 1205، 1898/11/7، ص 6؛ 1206، 1898/11/14، ص 2؛ المصباح 1276، 1898/10/15، ص 1.
- (68) الأهرام 6257، 1898/10/21، ص 1.
- (69) النشرة الأسبوعية 1702، 1898/9/10، "الخبر" ص 306.
- (70) المؤيد 2614، 1898/11/7، ص 1.
- (71) حول تحركات الإمبراطور في استانبول، انظر: ثمرات الفنون 1204، 1898/10/13، ص 1-2؛ 1205، 1898/11/7، ص 3-5؛ لسان الحال 2954 (كذا)، 1898/11/31، ص 1-2.

- (72) تفاصيل وافية عن "السلامك" والعرض العسكري، أنظر: *الأهرام* 6265، 1898/11/31، ص 1؛ وقران ب: *البشير* 1358، 1898/11/7، ص 1؛ *المقطم* 2920، 1898/11/1، ص 1.
- (73) *ثمرات الفنون*، 1206، 1898/11/14، ص 6.
- (74) *البشير* 1357، 1898/10/31، ص 2؛ *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 2.
- (75) *لسان الحال* 2954 (كذا)، 1898/10/31، ص 1-2؛ 2958، 1898/11/4، ص 1-2؛ 2960، 1898/11/7، ص 1-2.
- (76) *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 3.
- (77) *البشير* 1359، 1898/11/12، ص 1.
- (78) *المقطم* 2922، 1898/11/3، ص 1.
- (79) *الأهرام* 6267، 1898/11/2، ص 1.
- (80) *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 4.
- (81) *الأهرام* 6267، 1898/11/2، ص 1.
- (82) *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 4.
- (83) *المقطم* 2919، 1898/10/31، ص 1.
- (84) يعود تاريخ تأسيس كنيسة المخّص (الألمانية) إلى عام 1869، عندما أهدى السلطان العثماني وليّ عهد ألمانيا فريديريك-غليوم قطعة أرض في القدس. وقد بُوشر بحفرها على الفور. وبين عامي 1871 و1874، تمّ وضع الرسم الهندسيّ لها، وبدأ تنفيذ البناء عام 1892، على أن يُلحق به مستشفى. وقام الإمبراطور غليوم الثاني بنفسه وضع رسم قبة الجرس، التي بلغ ارتفاعها 45 متراً، وكان له دور في عملية التنظيم داخل الكنيسة. أمّا زوجته الإمبراطورة، فاخترت بنفسها آيات الأسفار المقدّسة لهذا الجرس الكبير.
- النشرة الأسبوعيّة* 1702 (1898)، "الكنيسة الإنجيليّة في القدس الشريف"، ص 304؛ المشرق 22 (1898)، "زيارة غليوم هوهنزرن للأراضي المقدّسة"، ص 1050-1051.
- (85) *النشرة الأسبوعيّة* 1702 (1898)؛ ص 304.
- (86) حول "الكوناكولم" أنظر كتابي: المصالح الألمانية في سوريّة وفلسطين 1841-1901، بيروت 1981، ص 278-279، 280-281.
- (87) *لسان الحال* 2960، 1898/11/7، ص 1.
- (88) *الأهرام* 6274، 1898/11/10، ص 1-2.
- (89) *البشير* 1358، 1898/11/7، ص 2؛ *ثمرات الفنون* 1205، 1898/11/7، ص 2؛ *المصباح* 1269، 1898/11/12، ص 1؛ *الأهرام* 6279، 1898/11/12، ص 1.
- (90) *لسان الحال* 2960، 1898/11/7، ص 2.
- (91) *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 5؛ *المصباح* 1279، 1898/11/12، ص 1.
- (92) *البشير* 1359، 1898/11/12، ص 1.
- (93) *المصباح* 1280، 1898/11/19، ص 1-2؛ *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 2.
- (94) *المقطم* 2933، 1898/11/16، ص 1.
- (95) كان والد الإمبراطور قد نزل في بيت شاميّة أثناء زيارته إلى دمشق عام 1869، *الأهرام* 6281، 1898/11/18، ص 1.
- (96) *المقطم* 2933، 1898/11/16، ص 1؛ 2934، 1898/11/17، ص 2؛ 2936، 1898/11/19، ص 1؛ *البشير* 1359، 1898/11/12، ص 2؛ "زيارة جلاله إمبراطور ألمانيا والإمبراطورة لفلسطين وسوريّة" في: *النشرة الأسبوعيّة* 1715، 1898/12/10، ص 427-429.
- (97) *المقطم* 2936، 1898/11/19، ص 1.
- (98) *طرابلس* (الشام) 279، 1898/10/13، ص 1.
- (99) *لسان الحال* 2966، 1898/11/14، ص 1.
- (100) سياسيّ لبنانيّ وأحد رواد اليقظة العربيّة.
- (101) نقلاً عن: *الأهرام* 6283، 1898/11/21، ص 2.
- (102) ميخائيل ألوف البعلبكيّ، تاريخ بعلبك، ط 4، بيروت 1926.

- (103) نقلاً عن *لسان الحال* 2966، 1898/11/14، ص 1. وقارن بـ: *المصباح* 1279، 1898/11/14، ص 4.
- (104) *لسان الحال* 2966، 1898/11/14، ص 1؛ *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 4.
- (105) *الأهرام* 6283، 1898/11/21، ص 2.
- (106) *ثمرات الفنون* 1204، 1898/10/31، ص 3.
- (107) من خطاب الإمبراطور في السفارة الألمانية باستانبول. نقلاً عن: *البشير* 1357، 1898/10/31، ص 1؛ *المقطم* 2915، 1898/10/26، ص 1.
- (108) *الأهرام* 6274، 1898/11/10، ص 1.
- (109) نقلاً عن: *المصباح* 1281، 1898/11/26، ص 1-2.
- (110) جاء هذا الكلام خلال حديث للإمبراطور مع الوفد العثماني المرافق به قبيل مغادرته إلى بلاده. أنظر: *المصباح* 1279، 1898/11/12، ص 1؛ 1281، 1898/11/26، ص 1-2.
- (111) نقلاً عن: *المقطم* 2936، 1898/11/19، ص 1.
- (112) نقلاً عن: *البشير* 1359، 1898/11/12، ص 2.
- (113) في كتابه: *الشم قبل مئة عام*، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقربنته إلى فلسطين وسوريا، سجّل وقائعها خليل سركييس، ط 2، الناشر حسن السماحي سويدان، دمشق 1997، ص 5.
- (114) نقلاً عن: *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 4.
- (115) *المقطم* 2916، 1898/10/27، ص 1.
- (116) حديث للعاهل الألماني مع الجالية الألمانية في استانبول، أنظر: *الأهرام* 6262، 1898/10/27، ص 1.
- (117) *المقطم* 2916، 1898/10/27، ص 1.
- (118) *المقطم* 2922، 1898/11/3، ص 1؛ 2928، 1898/11/10، ص 1؛ 2934، 1898/11/17، ص 2.
- (119) "زيارة إمبراطور ألمانيا والإمبراطورة إلى فلسطين وسورية"، في: *النشرة الأسبوعية* 1712، 1898/11/19، ص 400-401.
- (120) "آثار عن إمبراطور ألمانيا (في الشام والقدس)"، في: *المنار* 1 (16/1315) ج 36، ص 713.
- (121) "من خطاب الإمبراطور في حيفا رداً على بيفر، مدير التكية الكاثوليكية الألمانية (الطبعة)"، في: *البشير* 1359، 1898/11/12، ص 1.
- (122) أنظر دراستي المقبلة حول أصدقاء الرحلة في الصحافة والدولية.
- (123) نقلاً عن: *ثمرات الفنون* 1206، 1898/11/14، ص 2.
- (124) "آثار عن إمبراطور ألمانيا"، في: *المنار* 1 (16/1315)، ج 36، ص 711؛ *المؤيد* 2623، 1898/11/17، ص 1.
- (125) *لسان الحال* 2965، 1898/11/12، ص 2.
- (126) *ثمرات الفنون* 1207، 1898/11/21، ص 1-2.
- (127) *المقطم* 2936، 1898/11/19، ص 1.
- (128) "آثار عن إمبراطور ألمانيا"، في: *المنار* 1 (16/1315) ج 36، ص 714-715.
- (129) نقلاً عن: *المؤيد* 2623، 1898/11/17، ص 1.
- (130) "إمبراطور ألمانيا العظيم"، في: *أبائيل* 1914/12/21. عثرنا على هذا المقال في "أرشيف وزارة الخارجية الألمانية بون". ملف:
- PAAA,Türkei 177/ Libanon/R 14032, A 2046, Löytved an Wangenheim, Damaskus 22.12.1914
 لسوء الحظ، لم أعث على أية معلومات إضافية حول هذه الصحيفة، باستثناء أنّ صاحبها هو حسين محيي الدين الحبال، وكانت تصدر في بيروت، ثم انتقلت إلى صيدا. أنظر: يوسف أسعد داغر، قاموس الصحافة اللبنانية 1858-1974، بيروت 1978، ص 47.
- (131) *الأهرام* 6282، 1898/11/19، ص 1.
- (132) "الإمبراطور غليوم والجامعة العثمانية والإسلامية"، في: *الجامعة العثمانية*، السنة الأولى، ج 2، 1899/4/1، ص 18-19.

